حرب المكتبات الباردة: دور المكتبات في دعم السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة (١٩٤٦-١٩٩١)*

تأليف
باميلا سبنس ريتشارد
ترجمة
د. محمد إبراهيم حسن محمد
قسم المكتبات والمعلومات
كلية الآداب – جامعة عين شمس
mohammedelsobhy@yahoo.com

تمهيد :

تتناول المؤلفة التنافس الدولى بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى أثناء الحرب الباردة، وكيف أن الرؤى الفكرية عمدت إلى إقحام المكتبات فى داخل هذا الصراع. تمخض عن الحرب العالمية الثانية وجود قوتين هائلتين لطالما تبادلتا العداء، الأمر الذى ألقى بظلاله على أنشطة المؤسسات الثقافية. لقد وُظفت المكتبات باعتبارها أدوات مهمة لتنفيذ السياسة الخارجية لكلتا الحكومتين. اتبع الاتحاد السوفيتى أسلوب توجيه التعليمات من خلال مجلة وزارة الثقافة السوفيتية "ببلوتيكار Bibliotekar"، وكذا مجلس المساعدات الاقتصادية المشتركة التابع للحزب الشيوعى Communist Party's Comecon (Council for Mutual Economic Assistance). كانت مجلة وزارة الثقافة السوفيتية (ببليوتيكار) تستهدف أخصائيى المكتبات العامة، للتأثير عليهم بما يؤهلهم لمواجهة الأجندة العالمية للإمبريالية فى الخارج، وترتب على ذلك أن تحولت العديد من المكتبات إلى عناصر فاعلة فى الحملة السياسية والعسكرية التى تتطلع إلى زيادة الوعى القومى تجاه السياسة الدولية الخارجية. انصب جُل تركيز مجلس المساعدات الاقتصادية المشتركة التابع للحزب الشيوعى (كوميكون Comecon) على تقديم العون المالى فى مجال التعليم العالى المتخصص فى المكتبات للطلاب الأجانب الوافدين، وبذلك انضم إلى

المعسكر العديد من الدول الأجنبية التى كانت تُموّل من قبل الاتحاد السوفيتى.وفى نفس الوقت اتبعت الولايات المتحدة أساليب أكثر تحديداً ركزت على التأثير وبسط النفوذ من خلال مجموعات المكتبات. ومهما يكن من أمر، كان قانون تسجيل الوكلاء الأجانب The Foreign Agents Registration الذى لقى دعماً غير مسبوق من الكونجرس الأمريكى أحد الأساليب التى اتبعتها الولايات المتحدة لإيقاف تدفق المواد السوفيتية داخل الولايات المتحدة. أما الأسلوب الآخر الذى انتهجته الولايات المتحدة فكان من خلال سياسة وزارة الولايات المتحدة لشئون مكتبات الدولة U.S. Department of state Libraries (USIS)، والتى كانت تدعم مكتبات الوزارة فى دول ما وراء البحار لخدمة السياسة الأمريكية فى المقام الأول. كان للماكارثية فى أمريكا والإشتراكية فى الدول الشيوعية تأثيرٌ قوى فى الأجندة السياسية الدولية، وفى ضوء ذلك كله شغلت أنشطة المكتبات حيزاً كبيراً من الفلسفات السياسية الوطنية التى صيغت أثناء الحرب الباردة، الأمر الذى جعل مثل هذه الأنشطة تؤثر فى السياسة الخارجية الدولية.

لقد كانت المكتبات فى كلٍ من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى – مثل معظم المؤسسات الثقافية الأخرى فى هاتين الدولتين – متكافئة الى حدٍ ما أثناء الصراع الأيدلوجى بين القوتين العظمتين اللتين تسيَّدتا العالم لمدة نصف قرن من الزمان منذ اندلاع الحرب العالمية الثانية. وفى الوقت الذى انقسم فيه العالم إلى معسكرين يعادى كلٌ منهما الآخر خلال الحرب الباردة، استخدمت هاتان القوتان العظمتان المكتبات لمراقبة التفوق الاقتصادى والثقافى لكليهما فى الوطن الأم للظفر بولاء الشعوب فى الدول الأخرى. ودخلت المكتبات السوفيتية مع نظيراتها الأمريكية فى تنافس اتخذ أشكالاً متفاوتة تعكس تباين أنشطة المؤسسات الثقافية فى كلتا الدولتين. كانت جميع اتجاهات الحياة الفكرية والثقافية فى الاتحاد السوفيتى تُصاغ من خلال القرارات التى كانت تصدر مركزياً عن الحزب الشيوعى فى موسكو. لقد كانت سائر الأنشطة العامة التى تعمد إلى اتاحة المكتبات فى الاتحاد السوفيتى خاضعة لتنفيذ أهداف الحزب، بما فى ذلك الأهداف التى يتعين احرازها فى مجال السياسة الخارجية.أما فى الولايات المتحدة حيث يوجد سلطات قضائية مستقلة فى كل ولاية، الأمر الذى يكفل للأحداث الثقافية قدراً من الأمان، وحيث تخضع ملكية بعض أعظم مجموعات المكتبات لملكية الأفراد الخاصة، فقد تفاوتت مستويات إتاحة مجموعات المكتبات للعامة أثناء الحرب الباردة بشكل واضح. وإن المكتبات هى الوسيلة الوحيدة التى تستطيع بلورة أهداف سياسة الحكومة

التى تبتعها داخل حلبة التنافس الدائر فى دول ما وراء البحار.

وتسعى هذه المقالة إلى وصف الأسس الأيدلوجية التى تم فى ضوئها توظيف المكتبات أثناء التنافس الدولى من وجهة نظر كل جانب من الجانبين على حدة، لبيان الندية التي اتسم بها أداء المكتبيين فى كلا الجانبين خلال هذا التنافس، ولتوضيح تأثير مشاركتهم المهنية على أنشطة المكتبات الأمريكية والسوفيتية.

الأسس الأيدلوجية:

نظر الحزب الشيوعى فى الاتحاد السوفيتى للمكتبات باعتبارها مؤسسات مهمة لتأسيس وتطوير المجتمع الاشتراكى. وطبقاً لما ذهب إليه لينين، من أن جميع احتياجات الشعب يمكن أن تُلبى بواسطة الاشتراكية، كما أنه لا يمكن للاشتراكية أن تُبنى إلا من خلال "تطوير Improving" أساليب التربية السياسية للشعب، فإن تزايد معدلات الأمية هو الخطر الأكبر الذي يتهدد بناء الاشتراكية المنشودة. ويفهم ضمنياً من ذلك أن المواد القرائية ليست جميعها جيدة، وأنه يتعين على العاملين فى المكتبات توخى الحذر مخافة اشتمال مقتنيات مكتباتهم على كتب البورجوازيين أو الكتب الدينية.[1] أما فى الولايات المتحدة الأمريكية فكان يُنظر – على العكس من ذلك – إلى المكتبات العامة باعتبارها منتديات للتنوع الفكرى، فقد كان هناك اقتناع تام ليس فقط من جانب الشعب وإنما من جانب القادة الحكوميين أيضاً بأن جميع المواد القرائية إنما هى أشياء جيدة ومفيدة. إن الافتراض الذى حظى بالاهتمام من جانب مؤسسى المكتبات الأمريكية يقضى بأنه إذا ما مارس المواطنون النشاط القرائى على نطاق واسع، لكان فى ذلك ضمان كافٍ يؤمِّن الجمهورية من كل ما من شأنه أن يسيئ للحكم.[2]

وفى أعقاب الحرب العالمية الثانية أخذ الاتحاد السوفيتى على عاتقه تنشيط دوره فى مجال الشئون الدولية، وساهمت مكتباته تلقائياً فى الحملات السياسية التى تبناها الاتحاد على اعتبار أنها وسائل دعائية للدولة. الا أن عداء حكومة الولايات المتحدة تجاه الموقف السوفيتى بدأ يتبلور في شكل أكثر وضوحاً بعد انتهاء الحرب فى ١٩٤٥، من خلال تسخير مختلف فئات المكتبات؛ العامة، والخاصة، والأكاديمية لخدمة أهداف السياسية الخارجية الأمريكية على نحو أكثر تعقيداً من ذى قبل.

المكتبات والمكتبيون فى خدمة السياسة الخارجية السوفيتية:

شهدت السنوات الساخنة التى أعقبت الحرب العالمية الثانية (١٩٤٦ – ١٩٤٨) مواجهات أمريكية سوفيتية حول مستقبل شرقى أوروبا كاحدى الآثار المترتبة على حالة الحرب الدائرة بين القطبين المتنافسين. أقحمت المكتبات وكذلك المكتبيون السوفيت

ضمن حملة استهدفت زيادة الوعى بأهمية الكفاح الدولى لمساندة الاشتراكية. فى عام ١٩٤٨ استهدفت المقالات التى نُشرت فى المجلة الشهرية لوزارة الثقافة السوفيتية (بيليوتيكار) أخصائيى المكتبات العامة؛ حيث بدأت هذه المقالات بتشويه الحق الأمريكى فى تبؤ الريادة العالمية، وبالتحذير من مخاطر هيمنة الرأسمالية الأمريكية.

لقد كانت العنصرية هى أقوى الاتهامات التى وجهها السوفيت للولايات المتحدة الأمريكية، الأمر الذى جعل الولايات المتحدة تبدو من وجهة النظر السوفيتية غير جديرة بتبؤ مركز القائد فى عالم وصفه هارى ترومان بأنه "ملون بنسبة ٩٠%"[٣]، ففى أحد أعداد مجلة وزارة الثقافة (بليوتيكار) الصادرة عام ١٩٤٨، والذي كان يحمل عنوان: "مكتبات الطبقة البورجوازية فى خدمة المقاومة"، أشير إلى أن ٩٩ فقط من المكتبات العامة الموجودة فى الولايات الأمريكية الجنوبية البالغ اجمالي عددها ٧٣٤ كانت تقدم خدماتها للقراء السود، بالإضافة إلى أن "الزنوج فى الولايات المتحدة يفتقرون إلى الخدمات المكتبية الأساسية."[٤] وبعد مرور شهر عادت المجلة لتناول نفس الموضوع (العنصرية) من خلال التعليق على تقرير يعرض لافتتاح وزارة الولايات المتحدة لشئون المكتبات (USIS) المشرفة على المكتبات الأمريكية فى دول ما وراء البحار لعددٍ من المكتبات فى دول أمريكا اللاتينية بأن "التمويل الذى حظيت به هذه المكتبات قد يفوق ما أنفقته الولايات المتحدة على المكتبات العامة الخاصة بالأمريكيين السود الذين لم يحظون بعطف العم سام."[٥]

وكانت النغمة الآخرى التى دأبت مجلة وزارة الثقافة السوفيتة (التى كانت تُعار مجاناً لآلاف المكتبات العامة داخل الاتحاد السوفيتى) على ترديدها، هى الخطورة المصاحبة لتوسع نفوذ الولايات المتحدة خارج حدودها والذى يؤدى إلى نشر الرجعية المكتبية التى تعمد إلى تلبية اهتمامات البورجوازيين دون غيرهم. وفى نوفمبر ١٩٤٨ ركزت المجلة على مراقبة الولايات المتحدة للمكتبات العامة اليابانية الخاضعة للاحتلال الأمريكى؛ حيث قالت: "إن المستشارين الأمريكيين استطاعوا أن يتلاعبو بأياد المقاومة اليابانية، وأن المكتبات اليابانية شهدت فى واقع الأمر تدهوراً لم تشهد له مثيلاً قبل اندلاع الحرب، وأن ميزانيات هذه المكتبات لم تكن تُعتمد إلا بعد موافقة الجهات الأمنية." [٦] إن التهديد الأمريكى المتمثل فى عمليات التنقية الفكرية لمجموعات المكتبات لم يكن قاصراً على المناطق الواقعة تحت وطأة الاحتلال الأمريكى فحسب، وإنما امتد ليطول تلك المكتبات الواقعة في الدول التى كانت تتلقى المساعدات الأمريكية. وذكرت المجلة السوفيتية أن وزارة الولايات المتحدة

لشئون المكتبات المشرفة على المكتبات الأمريكية وراء البحار (USIS) اتخذت من تقديم المساعدات للمكتبات الأوروبية التى كانت تعانى من مشكلات مالية ذريعة لتنقية المكتبات الأوروبية من خلال "تنفيذ مشروعات التصوير الفيلمىّ المصغر لأوعية المعلومات Microfilming."[٧] وذهبت المجلة إلى ما هو أبعد من ذلك حيث ذكرت أن "الولايات المتحدة الأمريكية تستخدم منظمة اليونسكو كأداة لبسط نفوذها بأمان تحت لواء التعاون الدولى."[٨]

ولم يكن هناك ثمة طريق لتسليح المكتبيين السوفيت ضد تهديدات النفوذ الأمريكى سوى إقناعهم بأن الثقافة السوفيتية تتفوق على سائر ثقافات الدول الأخرى وبصفة خاصة الولايات المتحدة الأمريكية. وفى عام ١٩٤٨ ناقش اتحاد الكتاب السوفيت إمكانية تبنى حملة سياسية تستهدف التركيز على ريادة العلم السوفيتى، وإبراز "السبق الروسى لاختراع المحرك البخارى، والضوء الكهربائى، والراديو، وابتكار أول طائرة."[٩] وبعد مرور شهر طالبت مجلة "ببليوتيكار" المكتبيين بتنفيذ هذه الحملة داخل المكتبات، مع ضرورة توخى الحذر من الببليوجرافيات السوفيتية التى "تردد الانتقادات الغربية اللاذعة للعلم السوفيتى." وذُيل هذا العدد من المجلة بقائمة بالكتب المرجعية التى تشتمل على بحوث آمنة تتناول تاريخ العلم السوفيتى، وقائمة أخرى بالكتب التى تركز على العلم فى وطن الأجداد والتى يُنصح بعرضها فى معارض الكتب المرتقبة."[١٠]

تصدير الأنشطة المكتبية السوفيتية:

أسفرت حقبة الخمسينات من القرن العشرين عن تأسيس مجلس الحزب الشيوعى للمساعدات الاقتصادية المشتركة (Comecon) فى عام ١٩٤٩. ومنذ تأسيس هذا المجلس شرع الحزب الشيوعى فى تصدير مبادئ وممارسات المكتبات السوفيتية بقوة. ورغم امتلاك الاتحاد السوفيتى لشبكة واسعة قوامها المراكز الثقافية السوفيتية المنتشرة فى جميع أرجاء العالم، والتى ينطوى كلٌ منها على مكتبة صغيرة تدعم أنشطة هذه المراكز، اتبع السوفيت أسلوبا أقل تكلفة مادية من خلال تنظيم المؤتمرات والاجتماعات المهنية داخل جدران المكتبات السوفيتية ودعوة المكتبيين من الدول الشيوعية وغير الشيوعية لحضور مثل هذه اللقاءات، بالإضافة إلى تمويل برامج التعليم العالى والمستمر وتقديم المنح لطلاب الدول الأجنبية للتعلم والتدريب داخل المعاهد السوفيتية.[١١]

ومما لا شك فيه أن هذا الأسلوب أدى إلى تزايد المعايير المهنية فى العديد من الدول المستهدفة، كما أن هذا الأسلوب أدى إلى اصباغ المكتبات بالصبغة السياسية (تسييس المكتبات) من خلال تدريب

المكتبيين للاضطلاع بدورهم "كعملاء نشطين فى حلبة الصراع". وقد أكد تقرير سوفيتى صدر عام ١٩٨١ حول التعاون الاشتراكى الدولى فى مجال الضبط الببليوجرافى أهمية التدريب الأيدلوجى للمكتبيين الأجانب فى التصدى لتهديدات النفوذ الأمريكى. ولاحظ المؤلف أن العرض الأساسى لسائر الأنشطة التعاونية خلال العقدين الماضيين (الثمانينات، والتسعينات) كان "تطوير الثقافة الاشتراكية العامة" التى من شأنها دعم الدول الاشتراكية الصديقة من خلال طرق ثلاثة: (١) المساعدة فى بناء أساس علمى وتقنى قوى، (٢) المساعدة فى إيجاد توجه شرقى ملائم، يعمد إلى كبح الأفكار الاجتماعية الغربية، (٣) تسليح الدول الاشتراكية الصديقة للاتحاد السوفيتي في كفاحهم ضد الأفكار البورجوازية والاصلاحية. "[١٢] ويوضح المؤلف أن هذا إنما يشير إلى أن المكتبيين فى الدول الاشتراكية الصديقة يتعين عليهم تقييم المعلومات التى تتدفق من المنابع غربية النزعة "بوعى طبقى، وبتوجه ثورى".

ويحتاج المكتبيون الاشتراكيون أيضاً إلى من يحذرهم من المخاطر الأيدلوجية التى تتوارى خلف تكنولوجيا المعلومات الغربية. لقد كان الدافع من وراء المؤتمرات المهنية فى مجال المكتبات التى نظمها مجلس الحزب الشيوعى للمساعدات الاقتصادية المشتركة (Comecon) خلال سبعينات وثمانينات القرن العشرين، هو دعم معارضة دول وراء البحار لانتشار صيغة مارك MARC؛ الذى استمد مقوماته الأساسية من جهود مكتبة الكونجوس فى مجال الفهرسة المقروءة آلياً، والذى أصبح نظاماً دولياً معتمداً لتبادل المعلومات الببليوجرافية فى شكل مقروء آلى. ورأى السوفيت أن هذا من شأنه أن يُمكّن الولايات المتحدة من فرض نفوذها الأيدلوجى على أنشطة المعلومات على الدول المتعاونة.[١٣]

وكانت غالبية مؤتمرات التعليم المستمر التى دعمتها موسكو تُنظم خصيصاً للمكتبيين فى الدول التى تتلقى المساعدات من مجلس الحزب الشيوعى (Comecon)، والذى شمل بنهاية السبيعنيات كلُ من: منغوليا، وفيتنام، وكوبا، غير أن أكبر مؤتمر عُنى باختصاصى المكتبات فى الدول غير الاشتراكية ودول عدم الانحياز الواقعة فى أفريقيا، وأمريكيا اللاتينية، وآسيا عُقد فى عام ١٩٧٥ فى موسكو ثم فى المآطى (كازاخستان). وخلال هذا المؤتمر استمع وفود ست عشرة دولة للخطب التى ألقاها الكازاخيون والأوزباكيون عن المكاسب التى منحها النظام السوفيتى لثقافاتهم المنحدرة منه، وعن ضرورة بقاء المكتبيين نشطاء فى كفاحهم الأيدلوجى ضد الإمبرالية الرأسمالية.[١٤]

ومن بين الطرق الفعّالة التى انتهجها السوفيت لتصدير رؤيتهم العالمية من خلال أنشطة المكتبات، ذلك البرنامج الضخم الذى عمد إلى تقديم المنح والمساعدات المادية للطلاب الأجانب لمواصلة التعليم العالى فى تخصص المكتبات. ويعتبر معهد كروبسكايا للثقافة فى لننجراد Krupskaia Institute for Culture – الذي تغير اسمه فيما بعد وأصبح أكاديمية سان بطرسبرج للثقافة St. Petersburg Academy of Culture– أحد أهم المواقع السوفيتية فى هذا الإطار، حيث استضاف سنوياً مالا يقل عن مائة طالب فى المتوسط ضمن برنامج الدبلوم العالى ذي الخمس السنوات الذى كان يتيحه المعهد خلال الفترة ١٩٧٨ – ١٩٨٦.[١٥] علاوة على ذلك منح المعهد درجة الدكتوراه فى تخصص المكتبات لاثنى عشر فيتنامياً، وسودانيين، وكوبيين، وسوريين، وأفغانيين، ولمكتبى واحد من كل من: كبوديا، ولاوس، وغينيا، وكينيا، والعراق خلال الفترة الزمنية الممتدة من ١٩٧٤ – ١٩٩١.[١٦] وهكذا فقد عاد ما يربو على الألفى مكتبى إلى أوطانهم وقد أتقنوا اللغة الروسية، وأعتنقوا الأسلوب المركزى (السوفيتى) فى تقديم الخدمات المكتبية خلال النضال ضد الأفكار الغربية. وبطبيعة الحال أصبح لهؤلاء الخريجين أثرٌ فعّال فى تطوير الثقافة داخل الدول التى ينتمون إليها فيما بعد، فعلى سبيل المثال أصبح أحد الفيتناميين المتخرجين من معهد كروبسكايا للثقافة مديراً للمكتبة الوطنية الفيتنامية من هانوى.[١٧]

المكتبات والمكتبيون فى خدمة السياسة الخارجية الأمريكية:

نظر القادة الأمريكيون – مثل نظرائهم السوفيت– للمكتبات على أنها أداة مهمة فى إطار المعركة الأيدلوجية داخل الوطن وخارجه، إلا أن الكونجرس نهج أساليب مختلفة للتخلص من التأثير السوفيتي على مقتنيات المكتبات العامة، والخاصة، والأكاديمية. فمنذ عام ١٩٤٤ بدأ الكونجرس يسعى لإيقاف تدفق المواد السوفيتية إلى داخل الولايات المتحدة من خلال تفعيل الاستبعاد عن طريق قانون تسجيل الوكلاء The Foreign Agents Registration Act، الذى يملى على بائعى المواد السوفيتية تسجيل أنفسهم كوكلاء للقوة الأجنبية، وهكذا تضمن واشنطون الحصول على نسخة من كل كتاب أو دورية يقوم هؤلاء الوكلاء ببيعها خلال ٢٤ ساعة على الأكثر، ليس هذا فحسب وإنما الحصول كذلك على أسماء وعناوين الأشخاص الذين بيعت لهم هذه المطبوعات.[١٨] ولم تفلح الاعتراضات التى واجهها هذا القانون من تغيير الوضع القائم. فقد علق على ذلك المكتبى المعروف رالف شو Ralf Show؛ مدير المكتبة الوطنية الزراعية (NAL) قائلاً: "إن من شأن هذه القيود كبح جماح أنشطة البحث العلمى

والمكتبات وجهود سائر المؤسسات التعليمية، غير أن هذا كله لن يكفل تحقيق الرقابة الصارمة على الإنتاج الفكرى السوفيتى."[١٩]

لقد جاء الأسلوب الانتقائي في بناء مقتنيات المكتبات العامة على نحوٍ يعكس توجهات السياسية الفيدرالية الحكومية الأمريكية لمناهضة السياسة الخارجية السوفيتية، كنتيجة منطقية للضغط الشعبى فى الداخل. ومما لا شك فيه أن حملة جوزيف ماكارثى السياسية ضد الشيوعية خلال حقبتى الأربعينات والخمسينات اكتسبت قوتها من كراهية المواطنين للشيوعية، ومن اهتمامها بالحريات المدنية للأقليات المضطهدة.[٢٠] وكانت مجموعات المكتبات وسائر الأنشطة الداعمة للتكامل السلالى في الجنوب والمناطق الخاضعة لنفوذ الجنوبيين بصفة خاصة تعتبر متنفس سوفيتي مجملا "لأسلوب الحياة الأمريكي"، الأمر الذى حتم ضرورة قمع تلك الأنشطة بناء على مطلب شعبى.[٢١] وحملت المكتبات العامة المحلية – لا سيَّما تلك المكتبات الموجودة فى المناطق المعزولة التى تتخذ موقفاً عدائياً من السوفيت – على عاتقها ترويج كل ما من شأنه أن يصور الشيوعية العالمية على أنها "بوتقة تعمل على صهر السلالات والأجناس". غير أنه حتى فى الولايات غير الصناعية التى لا تقع فى الجنوب مثل نيوجيرسى، وكاليفورنيا، ودفعت حملات المنظمات الوطنية التى وصفت بعض الكتب بأنها "خطيرة" إلى مزيد من الرقابة الذاتية التى يضطلع بها المكتبيون الحذرون. وكم هم قلائل أولئك الذين لا يخشون مواجهة الرأى العام، ومنهم السيدة آن سمارت Mrs. Anne Smart؛ أحد الرقباء المنظمين لحملات كاليفورنيا للكتب الممنوعة، والتى ظهرت فى البرنامج التليفزيونى مورو شو Murrow Show للدفاع عن قائمتها التى شملت عدداً من الكتب المدمرة حيث أخبرت جمهور القراء بأن هذه "الكتب خطيرة لدرجة أنها قد تتسبب فى إحداث ثورات."[٢٢]

وتواكب تصعيد حكومة الولايات المتحدة لسياستها العدائية تجاه الاتحاد السوفيتى فى نهاية الأربعينات مع نشوب الحرب الكورية فى يونيو ١٩٥٠، الأمر الذى حمل معه مزيداً من الإغراءات الحكومية للتأثير فى مجموعات المكتبات الجامعية. وورد فى إعلان مجلس الأمن القومى الأمريكى الصادر فى ٢٥ نوفمبر ١٩٤٨ "أن العالم الشيوعى وغير الشيوعى لا يمكن أن يحقق أية إنجازات إذا ما تضافرت الجهود"، وأسهم ذلك فى تهديد العديد من الترتيبات العلمية الدولية المتعارف عليها منذ زمن طويل،[٢٣] وفى الواقع، قام مكتب التحقيقات الفيدرالية

Federal Bureau of (FBI) Investigation فى عام ١٩٥١ بالاستيلاء على صندوق أوعية المعلومات التى يتم تبادلها مع براغ، تشيكسلوفاكيا.(٢٤) وفى نفس العام طالبت اللجنة الوطنية المعنية بالأنشطة غير الأمريكية The House Committee on Un-American Activity بضرورة استبعاد الكتب الشيوعية من القوائم القرائية المدعّمة للفصول الدراسية فى أكثر من ٧٠ معهداً وجامعة أمريكية.(٢٥) وأدى هذا إلى تزايد معدلات الرقابة الذاتية من جانب أساتذة الجامعات أنفسهم، وكذا تقليص ساعات التدريب العملي، وبالنسبة للمكتبات فقد تناقصت معدلات شرائها للكتب التى يُحتمل أن يُنظر إليها على أنها مؤيدة للاتحاد السوفيتى. وبحلول منتصف الخمسينات من القرن العشرين بات التعاون مع مكتب التحقيقات الفيدرالية (FBI) وسيلة لدرء الاتهامات بالتخريب والتدمير، وهذه هى السياسية التى انتهجتها جامعة مثل هارفارد؛ حيث أخضع مركز البحوث الروسية التابع لها جميع المواد التى يتم شراؤها وبشكل منتظم للفحص من قبل مكتب التحقيقات الفيدرالية.(٢٦)

تصدير الأنشطة المكتبية الأمريكية:

مما لا شك فيه أن المكتبات التى حظيت بأكبر قدر من دعم الكونجرس الأمريكى هى تلك التى تخدم السياسة الخارجية الأمريكية، ويأتى على رأسها المكتبات التابعة لوزارة الولايات المتحدة المعنية بشئون المكتبات في دول ما وراء البحار، والمنبثقة من وكالة الاستخبارات الأمريكية The United States Information Agency (USIA) التى تم تشييدها أثناء ولاية الرئيس الأمريكي أيزنهاور. وقد جاء تأسيس هذه الوكالة استجابة لمطالب فرضها احتدام الحرب الكورية من جهة، وانتشار الماكارثية من جهة أخرى. وتجدر الإشارة هنا الى أن وكالة الاستخبارات الأمريكية عانت منذ البداية – فى الداخل والخارج – من الاعتقاد العام الراسخ بأنها آلة دعائية لحكومة الولايات المتحدة الأمريكية.(٢٧) ولقد ألقى هذا الموروث بظلاله على مئات المكتبات والمراكز الثقافية فى دول ما وراء البحار التي تم تأسيسها بواسطة مكتب الاستخبارات الحربي The Office of War Information خلال الحرب العالمية الثانية. ومنحت خطبة الرئيس الأمريكى ترومان فى يناير عام ١٩٥٠، التى نادى خلالها ببدء "حملة الحقيقة" ضد الشيوعية والتي أطلق عليها "ترويج أمريكا فى الخارج" الأولوية من بين الأهداف التى يسعى لتحقيقها.

وقبيل إنشاء وكالة الاستخبارات الأمريكية (USIA)، اتهم السيناتور

الأمريكى، جوزيف ماكارثى Joseph McCarthy فى أغسطس ١٩٥٣ المكتبات الأمريكية فى دول ما وراء البحار بأنها تتخذ موقفاً محيراً تجاه الكتب الشيوعية، وأنها تُدار بواسطة مكتبيين متعاطفين مع الشيوعية.[٢٨] وقامت وكالة الاستخبارات الأمريكية بالتصدى لإدعاءات ماكارثى ومؤيديه من خلال اقتناء أعمال المؤلفين الذين تحقق كتبهم أعلى مبيعات مثل: داشيل هامِّت Dashiel Hammet، وهاورد فاست Howard Fast.[٢٩] وبهذا ضمنت الوكالة اتباع أسلوب آمن سياسياً لاقتناء الكتب بواسطة القسم الببليوجرافى التابع له، والذى كان عليه أن يعد مراجعة سنوية لكتب يتراوح عددها بين ستة آلاف إلى ثمانية آلاف كتاب، وانتقاء المناسب من بينها لتزويد مكتبات وكالة الاستخبارات الأمريكية.

وكان يتم قبول الكتب أو رفضها فى ضوء معايير أربعة أساسية: (١) إلى أى حد سيدعم الكتاب سياسية الولايات المتحدة، (٢) ما هو رد الفعل الشعبى الذى يلقاه الكتاب، (٣) مدى تقبل الكتاب للثقافات الأخرى، (٤) مدى قابلية الكتاب للاستيعاب من جانب المتلقى الاجنبى. ومن أشهر الكتب التى رفضت وكالة الاستخبارات الأمريكية اقتنائها خلال الخمسينات كانت الكتب التالية: العريان والميت The Naked and the Dead لمؤلفه نورمان مايلر (١٩٤٨)، ومن هنا للأبد From Here to Eternity لمؤلفة جيمس جونز (١٩٥١)، والأمريكى القبيح The Ugly American لمؤلفه ويليام ليدرر (١٩٥٨). ويعلق أحد ضباط وكالة الاستخبارات الأمريكية على ذلك بقوله: "لقد إنسقنا داخل نظام ينحى أى شئ مثير للجدل جانباً."[٣٠]

وبعد تفجر أزمة القذائف الكوبية عام ١٩٦١، ارتفعت الأصوات التى تنادى بضرورة اخضاع سائر الأنشطة والمجموعات فى المكتبات والمراكز الثقافية التابعة لوكالة الاستخبارات الأمريكية لسياسة الحكومة الأمريكية.[٣١] ومع مطلع عام ١٩٧٠ سرد الفهرس الأسبوعى لإصدارات الناشرين Publishers Weekly قصة مؤداها أن وكالة الاستخبارات الأمريكية رفضت إمداد المكتبات التابعة لها فى أوروبا بعدد من الكتب المطلوبة لالشئ سوى أن مؤلفيها لا يُمجّدون لا الولايات المتحدة ولا سياستها. وانطوى هذا الأسلوب على عناصر أشبه ما تكون بالمتاريس التى تؤمّن الفكر الأمريكى أمثال: هنرى ستيل كوماجر Henry Steel Commager، ولويس هنكين Louis Hen Kin، والسفير الأمريكى المعتمد فى اليابان؛ ادوين رايز شوير Edwin Reischauer.[٣٢] أرسل مديرو وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية من مقر

الوكالة فى واشنطن قوائم بالمؤلفين المناوئين للتغيير إلى سائر المكتبات التابعة لوكالتهم فى دول ما وراء البحار. ومن أمثال هؤلاء المؤلفين: فردرك أوجست فون هايك Frederic August vom Hayek ، ووليام بكلى William Buckley، وآلن تات Allen Tate، وماكس إيستمان Max Eastman.[٣٣]

لقد بات واضحاً أمام عيون العالم ارتباط مكتبات وكالة الاستخبارات الأمريكية بالسياسات الأمريكية، ولعل هذا ما جعلها تتعرض للهجمات المسلحة المكثفة بحلول نهاية الخمسينات من القرن العشرين، فى حين لم تتعرض المكتبات الأمريكية الآخرى خارج الحدود لمثل هذا الهجوم. ومع ذلك كله يجب التسليم بأنه رغم السهولة التى كان يمكن من خلالها الهجوم على مبانى المكتبات، بقى صوت أمريكا "The Voice of America" مدوياً فى الآفاق.[٣٤] ومن ناحية أخرى حاصرت حشود الجماهير مكتبات وكالة الاستخبارات الأمريكية فى كل من: الجزائر (العاصمة)، أو أثينا، وبغداد، وبيروت، وكلكتا، وتايبيه خلال حقبة الخمسينات وفى كل من: روما، والقاهرة، وسورابيا (إندونسيا)، وبروكسل خلال الستينات من القرن العشرين.

ورغم أن ولاية الرئيس الأمريكى جيمى كارتر(١٩٧٦ - ١٩٨٠) شهدت تنوعاً سياسياً واضحاً في مقتنيات المكتبات، غير أن معدلات القيود المفروضة على إتاحة وصول الجمهور الأجنبى إليها تزايدت أثناء هذه الولاية.[٣٥] وبحلول عام ١٩٨٠ أصبح عدد المكتبات التابعة لوكالة الاستخبارات الأمريكية التى تعرضت للتفجير أو الحرق ٧٠ مكتبة.[٣٦] وعلى الرغم من طموحات بعض المتخصصين المثاليين الأمريكيين الذين كانوا يؤكدون على أن مكتبات وكالة الاستخبارات وراء البحار يجب أن تضطلع بدور توجيهى، وعلى الرغم من نجاح المكتبات الأمريكية التى تم تأسيسها فى المنطقة الأمريكية داخل ألمانيا فى أواخر الأربعينات- على الرغم من ذلك كله- لم يكن لمكتبات وكالة الاستخبارات الأمريكية تأثير كبير على الأنشطة المكتبية فى الدول المضيفة، علاوة على أن غالبية هذا التأثير كان فى مجال تكنولوجيا المكتبات العصرية. ولأسباب أمنية ومالية زاد تركيز مكتبات وكالة الاستخبارات الأمريكية على فئات بعينها داخل الدول المضيفة تمثل فى مجملها قادة الرأى العام مثل: (الصحفيون، والأكاديميون، وطلاب الدراسات العليا). وحتى هذه النخبة لم تسلم بحلول عام ١٩٩١من الخضوع لإجراءات التفتيش الأمني الصارم عند ترددها على هذه المكتبات بواسطة أفراد مشاة البحرية الأمريكية.

وفى أوج الحرب الباردة اتفق اثنان من رواد مهنة المكتبات فى الولايات المتحدة الأمريكية – رغم اختلاف الاستراتيجية التى يعمل بها كل منهما فى توظيف الخدمات المكتبية تحت مظلة إدارة الحكومة الفيدرالية الأمريكية – على أن النشاط المكتبى فى حد ذاته جزءاً لا يتجزأ من المعترك الفكرى. وفي ذات الوقت اعتبر موجه المكتبات؛ لورانس تومبسون Lawrence Thompson أن أنشطة المكتبات أداة داعمة للتحالفات العسكرية الاستراتيجية، معلقاً على ذلك فى عام ١٩٥٢ بقوله: "إنه من الأهمية بمكان أن تعرف قواتنا المسلحة بعض الأشياء ليس فقط عن مهاراتنا فى الأعمال الحربية فحسب ولكن أيضاً مهاراتنا المتعلقة بالنواحى الروحية، وأشير هنا على وجه التحديد إلى إمكانية تصدير التنوع الأنجلو – أمريكى للأنشطة المكتبية."(٣٧) ويمكن لأنشطة المكتبات أيضاً أن تكون بمثابة مفتاح لكل ما من شأنه تطوير التدابير الفنية الأمريكية التى تناهض السوفيت. ومن الأقوال المأثورة التى تردد ذكرها إبان إنشاء جمعية المكتبات المتخصصة عام ١٩٥٦، تحذير جيسى شيرا Jesse Shera؛ عميد مدرسة المكتبات فى جامعة كايز ويسترن ريزرف من أن الريادة فى مجال معالجة المعلومات تصنع فى موسكو بواسطة المعهد الاتحادى للعلوم والتكنولوجيا All-Union Institute of Science Technology، وتساءل شيرا قائلاً: "ما الانجازات الببليوجرافية الجديدة التى ابتكرناها منذ انعقاد مؤتمر اليونسكو حول تطوير الخدمات الببليوجرافية فى باريس عام ١٩٥٠؟ فلا يزال بوسعنا أن نصنع المعرفة على نحو يُيسر مستقبل حضارتنا، ويحفظ أسلوب حياتنا من الاندثار. لقد أقحمنا فى لعبة شرسة، وإذا لم نقم بدورنا الآن، فلن نمسك بخيوط اللعبة، فنحن نكافح هذه المرة للبقاء."(٣٨)

خاتمة:

على مدار نصف قرن، لم يكن كلٌ من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى عدواً عسكرياً للآخر فحسب ولكن منافساً فكرياً وأخلاقياً للآخر أيضاً. ومن هذا المنطلق شكلت الحرب الباردة ملامح الحياة الفلسفية والثقافية العامة لكل قطب بما فى ذلك أنشطة المكتبات. لقد رأينا كيف كان السوفيت رواداً فى تعليم المكتبيين الأجانب، بينما برع الأمريكيون فى بناء سلسلة ضخمة من المكتبات التابعة لوكالة الاستخبارات الأمريكية لعرض المطبوعات الأمريكية المنتخبة إلى جانب تكنولوجيا المكتبات الأمريكية. وفى النهاية بدا واضحاً انزعاج السوفيت من النفوذ الأمريكى الذى يعمد إلى تنقية الثقافات الاشتراكية، من خلال تكنولوجيا المعلومات التى تُبتكر فى الخارج مثل: المرافق الإلكترونية الأمريكية، وقواعد البيانات المتاحة على الخط المباشر، وأشكال الاتصال

البيليوجرافى التى تفوقت مؤخراً على أساليب تنظيم ومعالجة المعلومات سواء التى ابتكرتها منظمة اليونسكو أو تلك التى طورها الاتحاد السوفيتى. وعلى أية حال، أبقت العديد من الدول على البنى المعلوماتية المركزية التى تبنت النموذج السوفيتى، والتى لا تزال تُدار بواسطة المتخصصين المدربين السوفيت. ومما لاشك فيه أن العقود القادمة سوف توجد حلولاً للمعضلات والتوترات التى خلفتها الحرب الباردة فى تخصص المكتبات.

المراجع:

1. K.I. Abramov, Istoriia bibliotechnogo dela & SSSR (Moscow: Kniga, 1980), chap. 7.
2. Jesse Shera, Foundations of the Public Library (Chicago: American Library Association, 1949), 217.
3. Quoted in Michael S. Sherry, In the Shadow: The United States since the 1930s (New Haven Conn: Yale University Press, 1995), 146.
4. B. Kozlovskii, "Burzhuaznye biblioteki na sluzhbe reaktsii," Bibliotekar (May 1948):28.
5. B. Kozlovskii, "Burzhuaznye biblioteki na sluzhbe reaktsii," Bibliotekar (June 1948):40.
6. B. Kozlovskii, "O iaponskikh bibliotekakh I ikh amerikanskikh nonechiteliakh, "Bibiotekar" (November 1948):32.
7. Kozlovskii, "Burzhuaznye" (June 1948):41
8. Ibid.
9. Literaturnaia Gazeta, 17 July 1948, quoted in Werner Hahn, Postwar Soviet Politics: The Fall of Zhdanov and the Defeat of Moderation 1948 – 1953 (Ithaca, N.Y.: Cornell University Press, 1982), 83.
10. N. Vil' chur, "Propaganda literatury vydaiushchikhsia deiateliakh otechestvennoi nauki i, tekhniki," Bibliolekar (August 1948):6.
11. for more detailed, account of Soviet overseas information assistance, see Pamela Spence Richards," The Reconfiguration of International Information Infrastructure Assistance since 1991," Bulletin of the American Society for Information Science (June – July 1998).
12. I. G. Gorbacheva, Sotrudnichestuo evropeiskikh sotsialisticheskikh stran v realizatsii programmy uniuersalnogo bibiograficheskogo ucheta (Moscow: Moscow State Institute of Culture, 1981), 6.

18. American Russian Institute, "Special Libraries Conference on Russian Materials, November 17, 1945, New York City" mimeographed report, Slavic and Baltic Division, New York Public Library, 33.

19. Ibid, 18; "Libraries Exempt from Ban on Communist Literature," Library Journal 87 (15 November 1962): 41-56.

20. Richard M. Fried, Nightmare in Red: The McCarthy Era in Perspective (New York: Oxford University Press, 1990), 9

21. See especially Louise S. Robbins, "Racism and Censorship in Cols War Oklahoma: the case of Ruth W. Brown and the Bartlesville Public Library, "Southwestern Historical Quarterly (July 1996): 18- 46.

22. "Murrow's TV Program Exposes Book Banning," Library Journal 80, (15 September 1955): 1245.

23. Sigmund Diamond, Compromised Campus: The Collaboration of Universities with the Intelligence Community 1945- 1955 (New York: Oxford University Press), 54.

24. Ibid., 208.

13. Ibid., 7

14. Egypt, Bangladesh, Venezuela, Guinea, Zaire, Zaire Congo-Brazzaville, Mexico, Yemen, Peru, Senegal, Syria, Somalia, Tunisia, Sri Lanka, and Ethiopia. See R. Ia. Varaksina, "Seminar bibiotechnikh rabotnikov stran azii, Afrika i Latinskoi Ameriki ' Planirovanie natsional' nykh bibliotechnykh sistem' Moskva/Alma- Ata 4-ll sentiabria 1975g," Bibliolekouedenie i bibliografiia za Rubezhom 57 (1976): 72 – 74.

15. Interview with Larisa P. Moskalenko, since the 1960s Dean of Foreign Students at the St. Petersburg Academy of Culture (formerly the Krupskaia Institute), St. Petersburg, 24 October 1997.

16. Dissertations in library Science, typed list in the archives of the St. Peters. Burg Academy of Culture, St Petersburg.

17. Interview with Galina Verganova, Associate Dean for International Relations, St. Petersburg Institute of Culture, New York, 24 April 1998.

25. Fried, Nightmare in Red, 100.

26. Diamond Compromised Campus, 47.

27. Robert E. Elder, the Information Machine: The United States Information Agency and American Foreign Policy (Syracuse, N.Y.: Syracuse University Press, 1968), 33.

28. Walter L. Hixson, Parting the Curtain: Propaganda, Culture and the Cold War 1945 – 1961 (Now York: St. Martin's Press, 1997), 52.

29. Fried, Nightmare in Red, 34.

30. Hixson, Parting the Curtain, 123

31. Elder, the Information Machine, 255.

32. "New USIA Ban on Certain Books Overseas," Publishers Weekly 196, (15 December 1970): 19-20.

33. "USIA Moves to Right in Book Selection," Library Journal 95, (I February 1970): 435.

34. Hixson, Parting the Curtain, 124.

35. "New Views on Overseas Libraries," Publishers Weekly, 29 March 1978: 22.

36. Donald Hausrath, "International Communication Agency," in Encyclopedia of Library and Information Science (New York: Marcel Dekker, 1981), 32:95.

37. Lawrence S. Thompson, "Books Are Basic Beyond the Bosphorus," ALA Journal 46 (1952): 195

38. Jesse Shera, "Keynote Address Delivered before the Special Libraries Association, "Special Libraries 47 (September 1956): 322 – 26.

هامش:

* Libraries& Culture .– Vol. 36, No. 1 (Winter 2001). – PP. 193- 203